التاريخ عمل انساني

بحث في المدنية الغربية وقالبها التاريخي

شبه مجرى التاريخ بنهر عظيم، ينبع من مصدر قديم ضارب في دهاليز الزمن، متخذاً مجراه في سهول آسيا (1)، ماضياً برفق وهوادة خلال القرون، مستجمعاً مياهه من روافد جديدة اتصلت به على الطريق، حتى إذا ما بلغ عصرنا الحاضر، اتسع [illegible] وفاض بقوة فغمر الدنيا بأسرها.

من الناس من جسّد هذا الفيض، وجعل له شخصية وذاتية، وفرض له ارادة خالقة تتجه نحو النشوء والتطور، متبعة سنتها الخاصة بها، نازعة نحو بلوغ غاية مقصودة معينة.

تكلم هؤلاء فيما بعد بمنطق الآراء، واعتبروا الانسان والمدنية بمثابة أدوات سلبية، سخرها ذلك « الموجود العظيم » للوصول الى غاياته. غير أن الباحث الذي يأخذ بزمامه مثل هذا التفسير لسير التاريخ، يصعب عليه استبانة شيء من ذلك [illegible] النظام في الحوادث التي اعترت الانسانية، [illegible] فوق كل شيء، ان اعتماد الانسان أداة سببية [illegible] ويبلغ بها أي [illegible] حقيقة ثابتة، حقيقة ان الانسان هو الذي صنع التاريخ، وأن التاريخ لم يصنع الانسان.

لقد شيد الانسان المدنية، واستقصى بصبر بالغ وجهد وافر كل طريق يصطدم به المستحدثات والأشياء، ونصب كل النصب عاملاً جاهداً في استنباط كل رأي واستخلاص كل فكرة نعتبرها اليوم جزءاً من ميراثنا عن الأزمان السالفة. عمل الانسان عملاً متصلاً متأثراً بالبيئة التي حوته، وبقدر ما وصل الى يده من الوسائل، فرداً فرداً، وجماعة جماعة وسلالة سلالة، ولا أثر لموجود كليّ يقال له « الانسانية »(2) فيما بنى وشيد، وأنشأ ونجد.

إن المعتقدات والنظريات التي تعيش عليها الدنيا الجديدة في العصر الحاضر، ويعتنقها

---

(1) اشارة الى ان الانسان نشأ في آسيا

(2) « الانسانية » هنا يقصد بها موجود كلي يقول به [illegible]. والقول بوجود الكليات مذهب فلسفي، يناقضه ضداً مذهب آخر ينفيه، هو القول بعدم وجود الكليات.

تعمل ، ليست عبثاً من الآلهة ، كما جرت على ذلك الاسطورة القديمة ، وإنما هي نتاج جهد بذله أجيال متعاقبة .

وفي رأيي أن ذلك ليست نتيجة تجمّع بطيء متصل الأثر ، ككرة الثلج كلما دحرجتها ثلجاً زادت حجماً وتكوراً ، فإن أمماً برمتها وسلالات بجملتها ، قد جهدت ما جهدت في استنباط آراء وقضايا عقلية ، ثم امّحت من الوجود ، غير مخلفة في عقول القرون المتأخرة غير أثر تافه ؛ وما تبقى مما خلف هؤلاء ، تلقفه جماعات أخر وأمعن فيه النظر وأدخلته في بقية معتقداتهم ، ومن ثمّ تلقفها أناس آخرون ، فحوّروا فيها ، وبدّلوا من قوامها ، وعدّلوا في قوالبها .

حُوول عديد من البدايات ، وكثير من الأشياء ذوات القيمة قد فقدت وزالت ، وكثير من الأشياء التافهة ، وحتى الضارّة ، قد اكتنزت وبولغ في العناية بها . ومن المستطاع الآن ، بما بين أيدينا من المصادر ، وبجهد الباحثين المتواصل وكدّهم ، أن نرجع معاً إلى الماضي السّحيق ، وأن نؤلف صورة لحقيقة ما كان عليه كثير من الحضارات ، وأن نُجسّمها كُلاًّ كاملاً مُتّصل القسمات .

إن مثل هذا الجهد يطبعنا دائماً بطابع العجب من كثرة ما كشفنا عنه من خبايا الماضي . فقد نعلم من طريقه أن المصريين الذين عاشوا في الألف الرابعة قبل الميلاد ، وأن الأمم التي عاصرت البابليين ، كانوا صورة مما نحن الآن ، وبكلمة موجزة : كانوا أناسيّ فيهم مثل إنسانيتنا ، ولكن الكلام في ذلك ليس من شأننا في بحث نريد أن نلمّ فيه بحقيقة الانسان في العصر الحاضر ، وكيف تكوّن على الصورة التي نراها .

إنّ مدنيتنا هي في الواقع مزيج مما استطاع أسلافنا أن يحوزوه من تلك الثقافات الواضحة الدّقيقة ، مضافاً إليها ما استطاعوا أن يضيفوه إلى المادة التي تلقوها عن السابقين . وإننا لنفهم ذلك الهيكل الكلّي ، إذا بدأنا بالنظر في أمم العالم القديم ، وحاولنا أن نتبصر كيف استطاعوا أن يستجمعوا كنوز الماضي ؟

المدنية الغربية وقالبها التاريخي

عندما نتكلم عن الحضارة متحدثين صفاتها ، فإنما نعني بها جملة الأشياء الاعتقاديّة والعمليّة القائمة في أوربة وفي غيرها من بقاع الكرة الأرضية ، التي تنحدر منها سلالات من الأصل الأوربيّ . وإرضاء لبعض الأغراض نقرّر أن قولنا هذا ينطبق على النصرانية ، ولأغراض أخرى نقرّر أنه ينظر إلى البلاد التي مسّتها الثورة الصناعية .

هذه هي الحضارة التي يتصل فرزها ببعض علوم تطبيقية استطاعت أن تخترع المدفع السريع والدراجة الغربية ، فكان لها شيء من التسلط غير المستقر على أرجاء الأرض . وأنها لحضارة فتية بالقياس على الحضارات ، فليس لها تاريخ متصل الا من الف سنة ، ولكنها في هذه الفترة قد أتيحا من التطور والتغاير أكثر مما نال غيرها من حضارات العالم . وبالرغم من أنها استملكت العلم منذ ثلاثة قرون ، فما لم تملك مزايا مميّنة بيّنة على غيرها من ضروب الثقافات ، إلا في مثة العام المنصرمة . ففي نهاية القرن الثامن عشر ، لم يَرَ عامل الصين في أوربا من شيء يمكن أن يستفيد منه علماً . ولا يزال كثير من المفكرين يشكون في انه لم يكن على صواب . ولكن الواقع انّ هذه هي الحضارة التي ورثناها والتي نخضع ويخضع لها معنا العالم كله . وقبل أن نمضي في سرد الظروف التي أدّت الى نشوئها ونمائها ، يكون من الفائدة أن تتم النظر في بدايتها التاريخية الصحيحة .

الحضارة الغربية ثمرة مجهود أجيال من البشر ، وبخاصّة ، أولئك الذين قطنوا شمال أوربّا الغربي ، الذين وجدوا هنالك بعد أن انحدرت الامبراطورية الرومانية إلى الانحلال عقليّا واجتماعيّا . وهي تمثل مزيجاً من الآراء المنحطة من العالم الهلّيني ، والعادات والأمزجة التي وصمها عقل الهمج الذين غزوا تلك الامبراطوريّة وقوّضوا قائمتها .

إن لانحلال الامبراطورية الرومانية ، بحضارتها العقلية والمادية ، أسباباً كثيرة معقدة ملتبسة ، لم يكن غزو الهمج الا سبباً مكمّلاً لها ، ان لم يحتمل أن يكون نتيجة لا سبباً وكان من نتائج انحلالها ان مركز الحياة العقليّة أخذ يرتد نحو الشرق شيئاً بعد شيء ، حتى استقرّ في القسطنطينية مدينة الهلينيين والأقارنة . هذا ونجد أن غرب أوربّا تدنولا ، كثير من العوامل ، من أهمها الغزو الاسلامي الذي اجتاح جزءاً عظيماً من حوض البحر المتوسط ، فاضطر مركز القوة في الغرب أن يرتد نحو الشمال شيئاً بعد شيء ، حيث استقر في زمن شارلمان في فرنسا وغربي المانيا .

ان السلالات التي أهلت بها تلك البقاع لم تكن في غالبيتها من الأرومات التي اقامت الحضارة القديمة ، بل خليطاً من الغالبين القدماء ، الذين مدنهم الرومان في مستهل العهد النصراني ، وعدداً أقل من الغزاة « التيوتون » الذين هبطوا من الشرق .

وإذا نظرت في إيطاليا الرومانية واسبانيا وجنوبي فرنسا ، وجدت أن الهمج النازحين قد كوّنوا جزءاً لا يستهان به من مجموع السكان .

إن الارتداد نحو الشمال قد دلّ على ان الأمم الغربية بنشوئها تدرجاً من الخليط الذي تألف من تلك العناصر وبروزها من ثناياه ، كانت على وجه عام من صلالة أقرب عهداً بالحضارة

من أمم البحر المتوسط وفرق هذه ، فانها قد قطنت اقليماً قليل الاحتشاد بالآهلين ، وفي كنف حالات اجتماعية كانت لا تزال مشابهة لتلك التي أحاطت برواد القارة الاميركية لدى أول استعمارها . هذا في حين ان الحياة الاجتماعية في الجنوب كانت قد أخذت تنزع الى الخشونة درجة بعد أخرى . وقلّ ان نقع على انحراف فيه شذوذ يخرج بالحياة عن اطراد الثقافة القديمة في ايطاليا واسبانيا وجنوبي فرنسا وتواصلها ، ورغما لحق بالأسس الاقتصادية التي كانت لتلك الثقافة من الاختلال والفساد . أما في الشمال فإن الغاية التي اتجه فيها أهله ، منذ أيام الغزو الروماني ومن بعده ، قد انحصرت في اقامة حياة اجتماعية منظمة في بقعة لم تشهد إلاّ نماءً حضاريًّا نسبيًّا ، كما اتجهت الى هضم وتمثيل ثقافة الدنيا الحافة بالبحر المتوسط ، بقدر ما يمكن من العجلة .

إن صدمة الهمج الذين قبضوا على زمام الحكم ، قد عاقت سير النظام الذي كان قد قفز نحو الكمال بخطًى واسعة في ظل الحكم الروماني . وقد جاء زمن يغلب ان يكون قد حصل فيه انتكاس بين ، ... ولقد نستطيع ان نكوّن فكرة عن ذلك الموقف ، إذا قرناه بما وقع في اميركا في أوائل القرن التاسع عشر . فشمال أوروبا كان ينظر الى ما عرف في ذلك الوقت بوادي المسيسبي وغربي الولايات المتحدة ، وإيطاليا والجنوب ينظران الى شاطىء الاطلنطي ، وكان فيهما ثقافة أرقى مما كان في الأولى . أما القسطنطينية والشرق ، فينظران إلى اوربا ، وفيهما نواة الحياة المدنية ومركزها .

أن الجبهة التي قطنت غربي اوربا كانت جبهة ارتياد ، وقد جاهدت في سبيل تكوين مملكة جديدة ، ولم تجد في اثناء جهادها من الوقت ما تصرفه في سد حاجات العقل . ومن أجل ذلك دُمِغَتْ بكل ما في اصطلاح « العصور المظلمة » من المعاني . ففي شمال اوربا الشرقي ، كان العصر عصر « ظلامية » ، لا لأن الناس لم يكونوا على قسط وافر من النشاط والمقدرة ، ولا لقلة ما كان يتوقع من حياة طيبة مستكفية تنال بفضل ذلك الجهد وتلك المقدرة ، ولكن لأن أهل تلك البقاع كانوا حينذاك ، كأهل تخوم اميركا ، قد صرفوا كل ما لديهم من جهد لتحقيق أغراض كان من الواجب تحقيقها ، قبل ان تتجه المطامع إلى الأمل في وجود جبهة متنوّرة مثقفة .

بذلك ارتدّ مركز الغرب الحيوي الى بقاع أهلت بسلالات من حقنا ان ندعوها الأمم الغربية . وهم أمم شغلت ، في أول ما شغلت به ، بتنشئة حياتها المدنية في بلاد قليلة السكان مهملة المرافق . على ان القليل منها من استطاع ان يحصل على فراغ صرفهُ في تحصيل ثقافة بلغت من الرقي مبلغ ثقافة الدولة الرومانية قبيل انحلالها . وانحصرت هذه الاقلية في الكهان

وبعض سكان المدن من النبلاء . ولكن وجد الى جانب هؤلاء زمر وفيرة من الجهلاء والخشوشنين صرفتهم مهام الحياة عن مباشرة مثل هذه النعائم ، مثلهم كمثل أميركا المستعمرة فقد كان في مدنها الشاطئية جماعات متنورة رفيعة الثقافة ، كما كان في داخليتها روّاد خصوا بالقوة والذكاء ، ولكنهم كانوا جهلة مطلقين .

وكانت أمم الغرب ، في اكثر الأمم عاجزة عن استيعاب او تمثيل [1] كثير من المقومات الثقافية ، على الرغم من انه حينما انتشر سلطان الكنيسة ، ازدهر العلم والفن وبلغا درجة كبيرة من الرقي . ولقد اضطرت هذه الأمم أن تعيش خمسمئة سنة ، عيش الروّاد المستعمرين ، فلم تهدأ بينهم المناجزات في ظلال الحرجات والاجمات والسهول في غربيّ أوربا ، بعيدين عن مؤثرات التيارات الفكرية التي اندفقت في تضاعيف ذلك العصر ، بعد مكان كاليفورنيا أو أوستراليا عنها منذ جيلين فرطا من الزمان .

فلو انه وجد في ذلك الزمان بقعة غصت بالمعامل أو أعمتها رؤوس الأموال وتطلعت الى الأسواق ، إذن لنظر أصحابها الى هؤلاء الغربيين نظرة أنهم من « السلالات المتأخرة » ، ولكثر الكتّاب الذين يقيمون البراهين على أنها ، لعجزها عن استيعاب العلم واستمداد المعرفة من العالم الهلّيني ، وقصورها ، بعد انسلاخ قرون ، عن أن تفوز من النصرانية إلاّ بسطحيات خشنة غليظة ، هي بحكم الطبع غير كفيلة بأن تحمل أمانة الثقافات الشرقية إلاّ بقدر ما يستطيع أن يحمل منها همجي من السود أو الصفر .

لا شك في أن هؤلاء الكتّاب يكونون قد أخطأوا تقدير الموقف . ولكن لا ينبغي أن يغرب عن فهمنا انه من المتعذر علينا أن ندرك أن بناة المدنية الغربية قد بدأوا بناءهم مما يقرب من اللاشيء ، ثم مضوا في نشوئهم على ذلك البطء المضني . وانه لمن أبعد الأشياء عن إرضاء كبرياء شعب من الشعوب ، أن يعترف بأن كنوز المعرفة التي اختطّ اليها طريقه بعد لأي ، وتعب لتكون أساساً لحضارته ، قد أهملت ونبذت من قبل مئات من السنين ، بل كادت تنسى ويعفّي عليها الزمن .

ان كنوز اغريقية والشرق ، تلك التي وصل الى لبابها الرومان في أقل من أربعة قرون أو خمسة ، والتي هضمتها ومثلتها الشعوب السامية بغير كبير عناء ، قد اقتضت من شعوب الغرب ضعف ذلك الزمن ، حتى يعملوها بفطرتهم . فلم يكونوا قبيل القرن الثاني عشر ، قد بلغوا بعد من الرقي مبلغاً استطاعوا عنده ان يفهموا معاني الآراء القديمة ، ولم يتساووا

---

(١) التمثيل عمل فزيولوجي مؤداه ان الجسم الحي يحول الاغذية بعد هضمها عناصر تندمج في عناصره والمعنى المقصود هنا حدوث فعل مشابه لهذا في عالم الفكر .

من حيث القدرة الذهنية ، رجال الاسكندرية أو القسطنطينية أو روما الذين ظهروا قبل ذلك بألف سنة ، ولم يصلوا من حيث المدنية إلى ما وصل إليه الهنود وأهل الصين قبل العصر المسيحي بقرون عديدة ، إلا في حدود القرن السادس عشر . وربما كان شأن السلالات كشأن الأفراد ، كلما طال عصر طفولتهم ، طالت مقدرتهم على متابعة الدرس والتفقه في حين يكون غيرهم قد بلغوا أقصى مبالغ القدرة على الاستيعاب ، فاستنفدوا كل مواردهم الطبيعية .

أما القول بأن هذه الأمم الوثنية (١) التي سكنت الغرب ، كانت قد أقامت في حدود القرن الثالث عشر جمعية فيها جمال وفيها فخامة ، جمعية تحمل في تضاعيفها من الخصائص ما يجلب لها عطف كثير من القلوب في عصرنا هذا ، وبخاصة لأنها ملكت أشياء فقدناها وكانت لا تقدر بثمن ، فذلك من الحقائق التي لا يدخلها الريب ، ولا تحتمل المماراة . ولكنها على الرغم مما كان فيها من جمال وفخامة ، فإنها كانت خشنة جاهلة ، وفيها سذاجة الحداثة . جمعية من الروّاد ، حاربت وجاهدت للخروج من ماضٍ صرفته ، كادحة ناصبة ، في سبيل البقاء من ناحيتين : الناحية الطبيعية والناحية الروحية .

فإذا اعتبرنا أن القرن الحادي عشر هو نهاية تلك « العصور المظلمة » التي جهدت خلالها الأمم الغربية لتحقق لحياتها دعامة تقوم عليها من الوجهة الطبيعية ، وجب علينا أن نسلم بأن هذه الأمم كانت ، حتى ذلك العصر ، أشبه بالطليعة في الحياة الانسانية . ففي غابات فرنسا البدائية ، عاش بضعة ملايين من البشر الأقوياء يفلحون الأرض ، ولم يكن في سواحل انجلترا أكثر من مليون . وكانت الوحوش ما تزال تطوّف بعمرات القرى الصغيرة والعساكر ذات الأسوار . وكان هنالك فن بنائي عجيب الطابع ، ولكن الدرس والإكباب على استيعاب المعرفة ، ورفاهة العيش المدنيّ ، كانت بعيدة عنهم ، بعدها عن مستعمرات تخوم وادي السيبيّ في عصر واشنطون .

على حدود الشرق ، تربعت القسطنطينية على عرش إغريقية وروما بعد أن ورثتهما ، فكانت بالرغم من حياتها الجامدة المتحجرة ، أعلى ثقافة ، وأضخم مدنية من كل ما تقع عليه في رحاب الغرب . غير أن الورثة الحقيقيين الذين تلقوا أمانة المعرفة عن القدماء ، لم يكونوا في الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وإنما كانوا في بغداد عاصمة الخلافة العربية ، وموئل العلم الاغريقي ، ومنزل النشاط العقلي ومستقر الحكمة . ذلك بأنها تلقت الفلسفة الهلينية والعلوم الطبيعية بصدرها الرحيب ، عندما طاردها التعصب النصراني في القسطنطينية

ولقد احتضن الغزاة المحمديون في اسبانيا الثقافة الهلينية ، مؤثرين نظراءهم في بغداد

(١) الخلطة المؤلفة من عناصر مختلفة

الاجهاد العصبي

الاجهاد العصبي مرض يصيب الجسم والعقل معاً . ولقد زادت أعراض هذا المرض بزيادة حاجات الحياة الحديثة ، وبخاصة في هذه الفترة التي اضطربت فيها أوتار الحياة العادية . وهذا الجهد بل هذا التوتر العصبي مع ما يتبعه من تعب جسمي يؤثر في صحتك البدنية ، كما يؤثر في سعادتك المنزلية وعلى تهدئة بالك وراحة قلبك .

ومهما تكن الاسباب الباعثة على هذا التعب فالنتيجة انه ضرب من « التسمم الذهني » يؤثر في الجهاز العصبي ، وذلك يكون مزاج الانسان تكيفاً سيئاً ، فاذا جنحت الى الراحة والدعة فستجمت ، فان ما شموم التعب لا يتحملها الجسم ثم يطردها فتعود الى حالتك السوية مرة أخرى .

ومن الناس من يستمر في العمل مجهداً جسمه وأعصابه من غير ان يفكر في راحة ترد اليه انفاسه . وهنالك فريق آخر من الناس يشعرون بأنهم في تعب وجهد من غير أن يستطيعوا أن يعرفوا سبب ذلك . وفي كلتا الحالتين تقع على أعراض تكاد تكون واحدة : انهاك مفرطة وقابلية للتهيج ، وسوء الهضم ، والصداع ، وآلام غير معروفة المصدر او السبب . فاذا أنست في نفسك بعض هذه الاعراض فاعلم انك متقدم على طور من الانهاك العصبي فاذا أهملت علاج هذه الاعراض ، فانك ولا شك تنساق الى نتائج أبلغ أثراً .

أما السبب في أن بعض الناس قد يصيبهم الانهاك العصبي ، فراجع الى انهم يهملون الخلود الى الراحة اذا شعروا بحاجتهم اليها . والوصايا الصحية التالية هي علاج ناجع في مثل هذه الحالات

(١) لا تتجاوز حد احتمالك من التعب (٢) اتخذ عادة الراحة واتقن في أسبابها (٣) الزم الاعتدال في كل أعمالك (٤) أرح ذهنك الجهد بالرياضة (٥) تعلم كيف تضبط عواطفك (٦) أبعد عن تفكيرك ما تتوقع من مخاوف (٧) خذ من الراحة والنوم قسطك المطلوب (٨) نظم غذاءك (٩) اقتصر عن انهاك طبعاً في دورات منظمة (١٠) اغرس في نفسك عادة اتباع الانظمة الصحية .

ازدهرت بها معاهد قرطبة وغرناطة كما أثار علماء البربر من خلال مدنهم العامرة ، ومكتباتهم المفعمة بألوف الكتب والمجلدات ، باستخفاف وعدم اكتراث إلى الشمال ، حيث قطن أولئك الفلاحون ، سكان فرنسا والمانيا .

ولكن ، من أجل أن نستكشف مستقر الحضارات الحقيقيّة التي نشأها وغذاها تواصل الحياة وطول العهد بالرفاهة الماديّة والنشاط الروحي ، وجب علينا أن نضرب نحو الشرق ممعنين فيه لأبعد من تلك البقاع التي نشأت فيها الحضارة السامية على ضفاف الرافدين ، وأن نضرب في الأرض حتى نصل إلى الهند والى الصين ، فهنالك نقع على مُثُل من الحضارة تتضاءل الى جانبها كل ما تضمنت أوربّا ، بل هي تقماً [1] وتذل ، حتى لتكاد تتوارى .

اسماعيل مظهر

---

(١) تصغر